الآداب و اللغات المجلد 11 / العدد 03 2025 /ص 70 – 81

إبراهيم عبد الله غلّوم ونسقيّة الثّقافة العربية؛ سلطة التّراث وفشل مشاريع التّحديث

Ibrahim Abdullah Ghalloum and the Systemic Nature of Arab Culture: The Authority of Tradition and the Failure of Modernization Projects

سليم حيولة[1]

تاريخ الإرسال 2024/11/09	تاريخ القبول 2024/12/22	تاريخ النشر سبتمبر 2025

الملخص:

تتناول هذه الدّراسة أفكارَ النّاقد البحريني"إبراهيم عبد الله غلّوم"، الذي يُعدُّ أحد أهمّ النّقّاد العرب المعاصرين، الذين أسهموا في دراسة نسقية الثّقافة العربية، المتمظهرة في الممارسات اليومية، والسلوكات الاجتماعية، النّابعة من بنى ثابتة، تعود إلى نمطية كامنة في الثّقافة العربية، كما ركّز على بحثِ تأثيراتها في الشخصيّة العربية، باعتبار أنّ الثّقافة عبارةٌ عن مفاهيم فكرية قارّة، تُؤثّر في تحديد ذهنية الإنسان العربي، وفي تحديد تصرُّفاته وأفكاره، ويذهب إلى أنّ منبع هذه النّسقية متأتّية من فهمٍ خاطئ للدّين، ولمختلف الموروثات الثّقافية والأسطورية العربية القديمة، التي حدّدت مجملَ القيم الثّقافية الفاعلة في حياتنا المعاصرة، ولهذه النّسقية تأثيرٌ في كلّ ما تُنتجه الثّقافة العربية المعاصرة، سواءٌ في الفنّ أو الأدب والفكر، ويسعى"غلّوم" إلى تأسيس حاضر عربيّ، قائمٍ على العقلانية والدّيمقراطية، وعلى تأسيس نظام مدني، تقوم فيه الدّولة والأفراد والمؤسّسات بتنظيم حياتها وفق قوانين طبيعية، مستمدّة من الواقع، وليس من قيمٍ تراثية، تُشكّل نسقية، قامعة للذّوات والحريات، ومعيقة لكلّ مشاريع النّهضة.

الكلمات المفتاحية؛ إبراهيم عبد الله غلّوم-الثّقافة- نسقية الثّقافة العربية- العقلانية-الدّيمقراطية- النّهضة.

Abstract:

This study explores the ideas of the Bahraini critic Ibrahim Abdullah Ghalloum, one of the most prominent contemporary Arab critics, who contributed significantly to the analysis of the systemic nature of Arab culture. This system manifests in daily practices and social behaviors, rooted in fixed structures that stem from an underlying systems in Arab culture. Ghalloum focused on examining the impact of this cultural systems on the Arab identity, arguing that culture consists of deeply ingrained intellectual concepts that shape the mindset, behaviors, and thoughts of the Arab individual. He contends that this systemic nature originates from a misinterpretation of religion, as well as ancient Arab cultural and mythological legacies, which have defined the key cultural values influencing contemporary life. According to Ghalloum, this system has a profound effect on all forms of contemporary Arab cultural production, whether in art, literature, or intellectual thought. His work advocates for the establishment of a rational, democratic Arab present, built upon civil institutions where the state, individuals, and organizations organize their lives according to natural laws derived from reality, rather than restrictive traditional values that form an oppressive cultural system, represses individuals and freedoms, and hinders all renaissance projects.

Keywords: Ibrahim Abdullah Ghalloum - Culture - Systemic Nature of Arab Culture - Rationality - Democracy - Renaissance

.

*** *** ***

[1] - جامعة يحي فارس بالمدية haioula@yahoo.fr

تمهيد

تحتلّ كتاباتُ النّاقد البحريني "إبراهيم عبد الله غلّوم"(1952-2023)، مكانة مهمّة في الفكر العربي المعاصر، باعتباره متابعا لمختلف مشاريع النّهضة العربية، التي لم تُحقّق أهدافَها في إعادة بناء الواقع العربي، في الارتباط بالسياقات المعاصرة، وذلك بسبب نسقية الثّقافة العربية، المقلِّصة من حريّة الإنسان، والمعيقة لمشاريع النّهضة، التي قام بها المفكّرون العرب المُحدَثون، وربَط بين هذه الجهود وبين ما يُمثّله التّراثُ كمرجعية فكرية وثقافية، لمجمل تلك المشاريع، كتب"غلّوم" مؤلَّفه الهامّ الموسوم بـ"الثّقافة وإنتاج الدّيمقراطية" ونشره سنة 2002، بالإضافة إلى مقال آخر، يعود فيهما إلى تفسير سبب تخلُّف المجتمعات العربية، وتأخّرها في إعادة بناء الحضارة العربية-الإسلاميّة، مُرجعا ذلك إلى مكوّناتٍ في الثّقافة العربية، تُمثّل المخزونَ الذّهني للفرد العربي، يرى أنّها معوّقات حقيقة، تحول دون تحقيق التّقدّم المنشود، على الرّغم من ثراء الأمّة العربية بالإمكانات البشرية والمادّية .

أوّلا: غلّوم، تحويل فاعلية أدوار الثّقافة وسلطة المفهوم الغربي

إنّ "غلّوم" باحثٌ ما يزال غير معروف بالقدر الكافي، على الرّغم من أهمية أفكاره في فهم واقع الأفراد والمجتمعات العربية، ورسم طرائق ذهنية لتحقيق النَّقلة الحضارية المرجوَّة، وقد نختلف معه في بعض أفكاره أو جلّها، غير أنَّ الاطّلاع عليها، قد يفتح الآفاقَ للباحثين والمهتمّين، من أجل فهمٍ أعمق للمسائل المطروحة للنّقاش في واقعنا المعاصر، وكسبِ المزيد من الرُّؤى الجديدة، تُساعدنا في اقتراح حلول جدّية، لمسائل واقعنا العربي في المجالات جميعها، وقد عالج في كتابه الكثيرَ من آراء المفكّرين العرب، أصحاب مشاريع النَّهضة والحداثة، ورأى بأنَّ سبب فشلها يعود إلى أنّها لم تتأسّس انطلاقا من فهمها للواقع المعاصر للمجتمعات العربية، ولم تأخذ بعين اعتبارها السياقات المعاصرة، والظروف الطارئة والمستحدثَات العديدة؛ المعرفية والفلسفية والاجتماعية، ولم تستطع ضبط علاقاتها المتشعّبة بالغرب، وبمنظومته المعرفية، ويُقدّم من أجل ذلك اقتراحات هامَّة، سنقف عليها في خلال هذه القراءة، التي لا يُمكن أن تُحيط بأفكاره كلّها، وإنّما سنُحاول التّركيز على الأفكار الكبرى، وذلك من وجهة نظرٍ نقدية، تضع المفاهيمَ المقترحة موضعَ المساءلة، بالنّظر إلى أهميّتها من جهة، وإلى وضعها الإشكالي، باعتبارها إحدى المفاهيم الغربية، المرتبطة بسياقات غير عربيّة .

يُحدّد"غلّوم" في البداية، هدفَه من هذا الكتاب، مُشيرا إلى أنّه ينطلق من الواقع الفعليّ للمجتمعات العربية، لكنّه يُركّز على أثر النّسقية على الفرد أوّلا، ويُحاول تناول مسائل الثّقافة، انطلاقا من وجهة نظر خاصة، ليست لها علاقة وثيقة بالنّظرية الوظيفية في علم الاجتماع، التي تُهمل، كما يذهب المختصّون في هذا المجال، الفردَ وتُركّز على المجتمع كنظام، إذ يأتي تعريف هذه النّظرية على أنّها «**تتجاهل تماما الفرد وتُركّز على المجتمع كنظام**»[2]. وانطلاقا من هذا يُحاول"غلّوم" فهم مسألة الثّقافة في علاقتها بالفرد، وهي علاقة يكون فيها هذا الأخير مهيمَنا عليه، عن طريق أنساق الثّقافة المنتمي إليها، لكنّها تظهر في مجتمعه، بما يُحدّد خصوصيّات هذا المجتمع وممارساته اليومية، ويُؤكّد ذلك بقوله «**وإذا كنتُ في هذا الكتاب سأسعى لهدف جوهريّ يرتبط بتلك النَّظرية، فهو محاولةُ صياغة مفهومٍ وظيفي للثّقافة يرتكز على أنّ إنتاج الدّيمقراطية في مجتمعٍ من المجتمعات هو الوظيفة الأساسية لإقرارِ، أو إثباتِ أنّ التّنوُّع الثّقافي والاختلاف في التّحيّزات والانتماءات والهويات مسائلُ ينبغي الاعتراف بها بوصفها من مكوّنات الثّقافة**»[3]. فهو، وعلى الرّغم من تركيزه على الفرد، باعتباره متلقّي النّسقية ومستودعها، إلّا أنّه يلتقي مع النّظرية الوظيفية، كما يذكر، في أنّه ينظر إلى أثر تلك النّسقية في المجتمع، ويُحاول صياغة مفهومٍ وظيفي للثّقافة، تُصبح لها فاعلية، تسمح بتطوّر المجتمع العربيّ، وبذلك فهو ينطلق من

اعتقاده بأنّ الدّيمقراطية هي الشكلُ الأنسب للاستقرار السياسي والاجتماعي، والشرط الأساسي للتّقدّم الحضاري، انطلاقا من نموذج غربيّ، يهدف إلى تحقيق حكم الأغلبية واحترام الحقوق وتحقيق العدالة الاجتماعية، والاعتراف بالاختلافات، وهذا النّموذج السياسي والاجتماعي الغربيّ، يُوهمنا بأنّه منطقيّ وصائب، لهذا يسعى الغرب لإشاعته في الدّول غير الغربية، العربية منها على الخصوص، وفي هذه الحالة، لا يُمكننا فهم الدّيمقراطية كشكلٍ سياسيّ واجتماعي، إلّا باعتباره نتاجا للفكر الغربيّ، ومنطلِقا من طبيعته التّوسّعية، تماما كما الرأسمالية، التي أعطاها الاستعمارُ صورتَها الحالية، المعبّرة عن حقيقتها، في أنّها نظام اقتصادي قائم على تراتبية متحيّزة، تجعل طبقة البورجوازية المالكة لوسائل الإنتاج في موقع "السيّد"، يقوم باستعمال العمّال، الذين يجهدون بقوّتهم في الإنتاج، وهم في موقع "الخادم"، المهيمَن عليه، من أجل المزيد من الاغتناء والتّفوّق لطبقة البورجوازية؛ المالك الفعلي لوسائل الإنتاج، وهذا النّظام يسير وديمقراطية، يتّخذها الغربُ نظاما سياسيا واجتماعيا.

لكنْ، دعونا نعود إلى ما يُريد"غلّوم" الذّهاب إليه، من خلال عنايته بصياغة رؤية جديدة منطلقة من واقع المجتمع العربي، من أجل إسناد دورٍ فاعل للثّقافة المعاصرة، بعيدا عن سلطة النّسق، وهو الدّور الذي يُفسح المجال للاعتراف بالاختلاف والتّنوّع، الذي يتمّ بموجبه إشراك الأقلّيات الإثنية والهويّات الدّينية والثّقافية في المجتمع والسياسة، باعتبارها جزءا من المجتمعات العربية، وهو ما يُحقّق ديمقراطية، تُشيع الحرّيات وتضمن الحقوق، وبذلك يبني "غلّوم" نهجه على الفكرة القائمة على أنّ الدّيمقراطية هي السبيل الوحيد، الذي سيُساهم في تحقيق العدالة ومنح الحقوق الكاملة، لمختلف مكوّنات المجتمع، يراها ضرورية في إعادة بناء المجتمعات العربية، وكذلك بما تُمثّله من تحقيقٍ لسبل التّعايش بين مختلف تركيبات المجتمع، وهذا التّأسيس السياسي والاجتماعي، يرى أنّه يُفسح المجال لحضور التّنوُّع الثّقافي، الذي هو حسبه دليل ثراء المجتمعات، والاعتراف بالاختلاف في التّحيّزات والانتماءات والهويات، وهي كلُّها ذات طابع ثقافيّ، وإحدى الخصوصيّات الثّقافية للمجتمعات المعاصرة، وهو ما يزيد من الحرص على الاعتراف بها، وإحلالها المكانة التي ستصير معها أسسَ التّعايش والحضارة وعناصرها الحيوية، وإذا تمّ ذلك، فبالنّسبة له تحقّقٌ للمفهوم الوظيفيّ للثّقافة، وهو ما يجب أن تكون عليه المجتمعات المعاصرة، وما نأمل حصوله، لكنّ الأمر بالنّسبة لـ"غلّوم" ما يزال بعيدا عن التّحقّق في البلدان العربية، لأنّ الواقع يُعبّر عن تأزّمٍ حادّ، خلّفته تحيُّزات وانتماءات، كرَّسها فهمٌ خاصّ للدّين وتأويلٌ لشرائعه وقوانينه من جهة، واختلافات عقائدية وإيديولوجية تسم المجتمعات العربية من جهة ثانية، وزاد من رسوخها المُمارساتُ الاجتماعية، المحدّدة للحياة العربية، وأصبحت مسلَّمات، يصعُب تجاوزُها أو نفيُها، بل وتخضع لإعادة الإنتاج من قبل مؤسّسات مختلفة، الأمر الذي جعل المجتمعات العربية على ما هي عليه اليوم من تأخّر وتخلّف.

وإذا كان هذا المذهب الذي اتّخذه"غلّوم" مشروعا ومطلوبا، من أجل استقرار المجتمعات العربية وتطوّرها، فإنّه يجب أن تكون مجملُ المشاريع النّقدية العربية منطلقة من خصوصيّاتِ واقعنا، وألّا تكون محكومة بسياقات غربية، وبمفاهيم غربية كذلك، وحول هذا يرى الفيلسوف المصري"عبد الوهاب المسيري"(1938-2008) أنّ «**المصطلحات التي ترد لنا من الغرب تكون محمّلة بتحيّز اته، وتُعبّرعن رؤيته لنفسه وللآخر...**»[4]. والدّيمقراطية هي إحدى هذه المفاهيم المعبّرة عن جوهر الغرب ومضمونه الفكري والحضاري، وتطبيقاتُها لا تخرج عن سياق الصراعات الحزبية والتّجاذبات المالية، والدّليل على ذلك الحملات الانتخابية الرّئاسية في أغلب البلدان الغربية، التي تخضع لشروط مبدئية، قبل التّرشّح، وهي شروط محدَّدة من قبل أجندات مالية وسياسية وعسكرية، يتحدّد عبرها الفائز بالرّئاسة، وتخضع عملية الانتخاب نفسها، لعوامل اقتصادية،

تمسّ المواطن من قريب، وتفرض عليه الاختيار، بعيدا عن احترام رغبته، وهذا النّوع من الدّيمقراطية فُرض عنوة على البلدان العربية، ضمن شبكة سيطرةٍ عالمية، تدّعي الإنسانية، في إطار مجمل المفاهيم الغربية الأخرى، المهيمنة في حياتنا المعاصرة. فيجب أن تكون المفاهيم المصاغة من مجتمعاتنا العربية مرجعية لكلّ عمليات نقدٍ تأسيسيّ لمشاريع النّهضة، بعيدا عن سلطة المفهوم الغربيّ .

يذهب "غلّوم" من جهة أخرى، إلى أنّه وأمام إقصاءات الثّقافة، وعدم استثمار فاعليّتها المنتِجة في مجالات حيوية، مثل الاقتصاد والسياسة والثّقافة، المنعكسة في تحديد الأدوار الاجتماعية للأفراد، لا بدّ من إعادة المضمون الحيوي للثّقافة، أي الدّور المنتج والخلّاق، وهي فكرةٌ مهمّة، تُعدّ مدار الأمر كلّه في مسألة النّهضة، ويُضيف في توضيح أهدافه، بأنَ «...**السِّمت الذي سيخترق ما سوف تُعالجُه فصولُ الكتاب لن يخرج عن مستوى الإجابة على الأسئلة التي تدور حول أسباب إقصاء الثّقافة العربية، وتحويل فاعليّة أدوارها ووظائفها من الفاعلية المُنتجة للدّيمقراطية والعقلانية إلى الفاعلية المُنتجة للقوى الاستهلاكية، والقوى النّسقية التي هيمنت طويلا على أساليب تنشِئتنا وسياستنا، أينما كُنَّا في أحضان الأسرة أم في أحضان السّياسة وأسواق المال**»[5]. فهو يرى أنّه قد تمّ، تاريخيا، وبفعل موجّهات مركّبة؛ قَبَلية ودينية وسلطوية، إقصاء الفاعليّات المنتجة للقيم الحضارية، والنّتيجة أنْ أصبحت هذه المجتمعات "مجتمعات استهلاك"، وهي استهلاكية، فرضها توسّع النّظام الاقتصادي الرأسمالي، كإحدى أشكال الهيمنة الثّقافية الغربية، الأمر الذي جعل المجتمعات العربية تنحصر مضامينها وممارساتها في إطار بنية سوسيو-ثقافية، بقيت قويّة ومتماسكة، ما منع حدوث التّطوّرات التي تفرضها السياقات المستحدَثة، في كلّ فترة تاريخية، بما يُعدّ من أكبر المعيقات في سبيل النّموّ والتّحضّر، لذلك يدعو "غلّوم" إلى تفعيل وظائف الثّقافة، لتبنّي الدّيموقراطية والعقلانية، وهو يقصد-دون شكّ- العقلانية، غير المنحرفة عن جوهرها، الذي تأسّست من أجله في إطار عصر الأنوار في أروبا، تسمح بإدراك وظيفة الإنسان كخليفة لله في الأرض، وتحقيق أكبر قدرٍ من التّسامح والتّعايش بين البشر، لا عقلانية ثورة 1789 الفرنسية، المتوّجة للإنسانَ الأروبيّ كمركز، لما يُعدّه مهمّشا وتابعا، والرأسمالية المبنية على تسيّد البورجوازي والرأسمالي على الطبقة الكادحة، ممّن لا يملكون سوى قوّة العمل، ونحن نعرف، كما يذهب إلى ذلك "المسيري" أنّ العقلانية التي نمت وتطوّرت ضمن الحداثة في الغرب هي عقلانية مُفرَغة من القيم، لأنّها مرتبطة بالمادية، لا بالإنسان الذي لم يعد أخلاقيا ونفسيا، بل أصبح وظيفة في المجتمع الغربي المعاصر، ولذلك فـ"المسيري" يذهب إلى أنّ الإنسان، في إطار الحضارة الغربية، تمّ إخضاعه لعمليات التّرشيد العقلاني المادّي، الذي يهدف إلى فرض الواحدية المادّية، التي تُسيّر عمليّات التّحديث الغربي من أجل تحقيقها، أي حصر الإنسان ضمن بُعدٍ واحد مادّي يُهمل الجوانب الأخرى، الدّاخلة في تكوينه الذّهني، وهو ما يعني حسبه، بأنّ «**ثمّة تراجعا مستمرّا عن الفلسفة الإنسانية (الهيومانية) وعن ثنائية الإنسان والطبيعة وعن الإيمان بالثّبات والتّجاوز، وهو في و اقع الأمر تصاعدٌ مطّرد للواحدية المادية وتصفية لكلّ الثّنائيات والخصوصيات والهويات والثّبات. ولعل ما يُسمّى التّلاقي (بين النُّظم الرأسمالية والاشتراكية)، وهيمنة النّماذج البيروقراطية الكمّية، وإزاحة الإنسان عن المركز، والتّسلّع، والتّحييد، والتّشيؤ، والاغتراب، ونزع القداسة عن العالم، و إنكار الجوهر الإنساني، والهجوم على الطبيعة البشرية، والنّظام العالمي الجديد...هو تعبيرٌ عن نفس الظاهرة وليس مجرّدَ انحر افات عن مسار التّحديث وعن جوهره**»[6]. فالعقلانية الغربية الحداثية، هي في حقيقتها عقلانية مادّية، كما شرح مفهومها "المسيري"، أي عقلانية الأنوار نفسها، لكنّها أنتجت كلّ المظاهر التي جعلت الغرب في أزمة حضارية، وسواء أكانت العقلانية الغربية تعبيرا عن الأصل الأنواريّ، أم انحرافا عنه، فإنّ السياق الحالي للعقلانية، باعتبارها إحدى المفاهيم

الغربية، لا يُمكن إلّا أن يكون معبّرا عن تحيّزات كامنة في الفكر الغربي، ومنبعثة منه، ويرى "المسيري" انطلاقا من ذلك أنّ السياق العامّ العالمي، في بداية القرن الواحد والعشرين، يتميّز بتراجع الدّين وانحساره والفصل بين المجتمع والاعتقاد الدّيني واختفاء فكرة المقدّس، والتّركيز على الحياة المادّية، وفي هذا الإطار اكتسبت المفاهيم الحضارية الغربية معناها، وإنّ من أبرز خصوصيّاتها انحسار الفكر الإنساني، وتصاعد مطّرد للواحدية المادية، وإزاحة الإنسان عن المركز وطغيان السلعة والتّشيّو* وخلق مجتمعات الاستهلاك وإحلال الشعور بالاغتراب، وأخيرا نزع القداسة عن العالم، الذي ترتّب عليه إنكار الجوهر الإنسانيّ، وفي هذا الإطار أصبح الإنسان مثله مثل السلعة، فإذا كان المقصودُ من "غلّوم" هذه العقلانية الغربية، التي أفرغت عالمَها السياسي والاقتصادي والثّقافي من القيم، وتُوشك أن تجرّ العالم كلّه، إلى هذه العدمية القاتلة، فإنّا لا نرى جدوى من ذلك، أمّا إذا تعلّق الأمر بصياغة مفاهيم مستوحاة من خصوصيّات المجتمعات العربية، فذلك يُمثّل بالنّسبة إلينا، أولى مراحل النّهضة المنشودة، لأنّها ستقوم على أسس ثابتة، سيحكمها، دون شكّ، سنن النّظام الإلهي المطابق للوجود، الذي يمنحها الدّيمومة والتّواصل، وبناء على ما أوضحه "المسيري" فإنّه لا بدّ أن يكون أيّ شكلٍ من أشكال النّقد مرتبطا بحاجات قومية، لا تسير والوضع العالمي، الذي يُهيمن عليه الغربُ برؤاه ومفاهيمه الانتقائية.

ثانيا؛ نسقيةُ الثّقافة العربية، والرّؤية القُطرية الجامعة

على الرّغم من طغيان المنظور الغربي "الإنساني" ذي الأصول الأنوارية-الحداثية، وهيمنته على العالم، بإحلاله واقعا مادّيا، يُؤسّس للعلاقات بين الذّوات في المجتمعات المعاصرة، إلّا أنّ "غلّوم" يُركّز على القوى المؤسّساتية التّاريخية، داخل الثّقافة العربية، التي حوّلت الثّقافة وفاعليّتها، نحو نسقية متجذّرة، تراكمت تاريخيا، وهي نسقية أصبحت طاغية في مجمل مظاهر الثّقافة العربية؛ السياسية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة، مؤثّرة في تكوين بنية ذهنية للشخصية العربية، وأصبحت المحدّد الأوّل لنفسيّتها وتفاعلاتها المختلفة في إطار المجتمع، لذلك، يسعى "غلّوم" في كتاباته إلى محاولة إدراك الواقع العربي وفهمه، في علاقاته بالثّقافة العربية وبأنساقها الثّابتة، في رؤية تتّخذ القُطْرية جامعا للعرب، ضمن مفهوم العروبة وفي تقييم العلاقات الفكرية بين الفرد وبين تراثه، و هي تُمثّل مشروعا حضاريا، يهدف إلى تحقيق وعيٍ عربي بالذّات، قبل أيّ شيء آخر، وفي إطار الوحدة العربية، أمام ما كان يراه من تشتّت وتشرذم للطاقات والجهود، المعيقة للشعوبَ العربية عن تأسيس نهضتها الفعلية، وحول هذا المعنى يُضيف المقارن المغربي "سعيد علّوش" أنّ «**غلّوم ينتقد النّسقَ المستبدّ بالعقل، والذي يَحول دون التّفاعل مع الثّقافة العربية القُطْرية**»[7]. فعلى الرّغم من وجود أسباب كثيرة أخرى، تُعيق النّهضة العربية، إلّا أنّ"غلّوم" حسب قراءة "علّوش" يميل إلى تحديد ذلك في الأنساق الطاغية في الثّقافة العربية المحلّية، بحسب الدّول والمجتمعات في المشرق والمغرب، إذ لكلّ ثقافة محلّية أنساقُها وبناها الفاعلة في التّأسيس لواقع متحوّل ومنتج أو العكس، لكنّها في نهاية المطاف يبدو أنّها تُمثّل عوامل حدٍّ من حرية الأفراد والمجتمعات، ولذلك يجب التّحرُّر من كلّ الأنساق والبنى التي تمَّ تأسيسُها، والتي يُعاد إنتاجُها من قبل مؤسّسات الهيمنة، وغدت - بمرور الوقت- بنى تاريخية ثابتة، تواصلت زمنيا مع تعاقب الدّول والحكّام، وأصبحت خطابا مُهيمنا، مُحدّدا لمجموعة من القيم الاجتماعية والفكرية، ومنعت كلّ مشاريع التّحديث وصناعة النّهضة، سواء أكان ذلك في المشرق أم في المغرب، لذلك يؤكّد "غلّوم" على أنّ « **التّحدّيات قوى نسقية مُهيمنة ينبغي اكتشافُها من أجل معرفة حدود ما تُشكّله في أنساق الثّقافة العربية من تشويه وتزييف وإعاقة أو من بعثٍ و اندفاعٍ خلّاق. والثّقافةُ بالمعنى الذي سأُحدّده دائمةُ الاقتران بمنظومة من التّحدّيات في جميع العصورلأنّها- أعني الثّقافة- دائمةُ الاقتران بالمعنى الخلّاق في التّغيير، وبدون ذلك لا تغدو الثّقافةُ رُوحا ورمزا مُستمرّا لعقل المجتمع**

الذي يُنتجها»[8]. فالعربيّ اليوم مطالبٌ بأن يكون واعيا بمختلف المعوّقات التي تمنعه من تحقيق التّحديث الحقيقي، والمساهِمة في تعطيل النّهضة العلمية والاقتصادية والاجتماعية الفعلية، المتراكمة تاريخيّا، استمدّت قوّتَها من سلطة مؤسّساتية، ثبّتَتها باعتبارها أنساقا قارّة لا تتغيّر، وكرّست مجموعة من القيم المُحدِّدة للمجتمع العربي المعاصر، بمختلف بُناه الفكرية والاقتصادية، وعملت هذه الثَّقافة على تشكيل بنية ذهنية للشّخصيّة العربية، أعاقتها عن الاندفاع نحو تحديثِ مختلف مناحي الحياة العربية، فللفكر أهميّةٌ كبرى في تحقيق الإنجازات الحضارية، وإذا كان "غلّوم" يرى بأنّ الثّقافة قد تكون العامل الأهمّ في تطوير الحياة و"دمقرَطتها"، فإنّ نسقيَّة الثَّقافة العربية كانت أهمّ عامل أعاق التَّطوُّرَ الطبيعي للمجتمعات العربية، إذ إنَّ الفردَ أصبح عاجزا عن النُّموّ الذّهنيّ، وهو ما ينعكس على المجتمع الذي يبقى "متخلّفا"، وتظلُّ مشاريعُه النّهضوية مُرجأة .

يسير عمل"غلّوم" عبر طرح تساؤلات عميقة، نتيجة مُعاينته واقعا عربيّا متخلّفا في مجالات عديدة، لذلك فهو – باعتباره عربيّا وأكاديميا- كان عليه أن يُقدّم الحلولَ اللّازمة، بناء على استقرائه لهذا الواقع، الذي يُرجعه دائما لطغيان نسقيّة قويّة، تمَّ لها الشُّيوع والانتشار في الثَقافة العربية، وأصبحت تُشكّل خطابا مهيمنا، يصعب إبطالُه والحدّ من تأثيراته، وهو الخطاب الذي يستمدّ قوّتَه وديمومته من السّلطة الدّينية والسّياسية المتراكمة عبر التّاريخ والمتوالية، بحسب العصور والأزمان، وإنّ الخروج من هذا الواقع يستلزم إدراك كلّ تلك الآليات السُّلطوية، التي مكّنت للخطاب النَّسَقي من أن يطغى وأن يُعاد إنتاجُه، والسؤال الذي كان يشغله يدور حول سرّ تأخّر العرب والمسلمين، ويرى أنَّه و «**منذ سؤال محمّد عبده [لماذا تأخَّر المسلمون؟] إذن يمكن لنا أن نفهمَ بأنّ تحدّيات المستقبل ليست قوى تقع خارجَنا..ليست تهديدات ومؤامرات تُحاك لنا، وليست عوامل متّصلة بنموذج غير نموذجنا الذي نحيا به والذي نُقرّره ونختاره. في ضوء ذلك كانت التَّحدّيات- في تقديري- هي قِوانا المُهيمنة، التي تُنتجها ثقافتُنا ولا تُنتجها ثقافةُ غيرنا. ولذا لن تكون تحدّيات القرن الجديد في الثّقافة العربية متبدّية في التّقدّم المتسارع في ثقافة الآخر، وإنّما ستكون في التّخلّف الجاثم في ثقافة الذّات، وهذه عملية تقتضي التَّحرُّرَ من عقدة الآخر، ومن نظرته المركزيّة أيضا**»[9]. وبذلك فهو وعلى الرّغم من إدراكه لأثر الغرب في نفسيّتنا، فإنّه لا يهتمّ بالأثر الكبير، الذي خلّفته أروبا والغرب في حاضرنا، وفي قدراتنا الذّهنية، وفي كلّ ما يُحيط بنا، من عوالم اجتماعية واقتصادية وسياسية، ويُركّز على القوى المهيمنة في ثقافتنا، ويجعلها سببَ التّخلّف، لأنّنا لم نعمل على تأسيس فاعليةٍ، تُساهم في جعلها منتجة بالمعنى الإيجابي، وهي القوى نفسها، في تقديره، التي بقيت حبيسة عقدة مرتبطة بالغرب وبنمط حياته ونظام فكره، ولذلك يدعو إلى التَّحرُّرَ من عقدة الآخر، ومن نظرته المركزيّة، لأنّها لم تُساهم في تحريرنا وإنّما كانت تأثيراتها وخيمة في شعورنا بالعجز والكسل، و"غلّوم" حين يعيب على غياب نظرة قُطريّة، تجمع العرب في هدفٍ واحد أسمى، يتناسى أنّ أروبا ممثّلة في فرنسا وبريطانية، عملتا على تفريق البلاد العربية من خلال اتّفاقية سايكس-بيكو سنة 1916، تمّ من خلالها تقسيم تركة الدّولة العثمانية، وسرّعت سقوط الخلافة الإسلامية، سنة 1926، ولذلك، فالأنظمة السياسية التي تأسّست في حكم البلدان العربية لم تكن سوى من وضع أروبا، وهذا يعني ارتباط الاستبداد والطغيان الاجتماعي والسياسي باستراتيجيات غربية منظّمة، من أجل الهيمنة ومنع المشاريع الفاعلة، بافتعال الأزمات وصدّ كلّ عمليات الوحدة والتّفاهم بين الشعوب العربية، وعلى الرّغم من كلّ ذلك، فهو يرى أنّ «**العلاقات العربية/العربية تتحكَّم فيها اليوم ثلاث محدّدات– السّيادةُ الوطنية...وأوهامُ الاستقلال– النَّزاعات الحدودية والخصومات السياسية- المصالح السياسية...لقد انعكست هذه المحدّدات على كيفيّة دخول الأنظمة العربية في الاتَّفاقيات العربية والدّولية..الأمنية**

والاقتصادية، كما انعكست على مفهومها للوحدة والقومية والسّيادة الوطنية والموقف من القضايا العربية الكبرى...وكان ممَّا جعل هذه الانعكاسات ذات دلالة ثقافية نسقية هو: أولا؛ التّحكم السّلبيّ لتلك المحدّدات. ثانيا؛ حالة الفصام بين التَغنّي بالوحدة والنّفور منها، والنُّفور من القُطرية والتّمسّك بها. ثالثا: تحكُّم البنية العشائرية التَّقليدية في الأنظمة العربية. وهذه كلُّها تُرسّخُ فضاءَ الثّقافة النّسقية في مناخ السّياسات العربية»[10]. وهو ما يُوضّح مختلفَ التّجاذبات الثّقافية والفكرية بين البلدان العربية وأنظمتها الحاكمة، التي لم تتغيَّر يوما، إلّا لتخلُف نفسَها، محافظة على بنيتها النّسقية والخطابية التّاريخية، وهي نتيجة طبيعية لمواقف نابعة من محدّدات خاصّة للعلاقات بين البلدان العربية وسياساتها الدَّاخلية والخارجية، تمنع إلى اليوم، كما يذهب"غلّوم"الوحدةَ والتَّعايش الفعلي، جرّاء خضوعها لموجّهات عشائرية تقليدية، تُمثّل النَّسقية في أجلى صورها، وتَظَلّ الأنظمة القائمة في البلدان العربية تُمارس سياستَها فيما بين الدّول العربية أو مع البلدان الأجنبية، انطلاقا من قوى تُرغمها على اتّخاذ سياسة خاصّة، بعيدة عن التّفاهم العربي، مُحدثة انشطارا بين ما تُؤمن به وبين ما تفرضه تلك الأنساق الكامنة في تفكيرها العميق .

في إطار المراجعات الكبرى، الهادفة إلى محاولة فهمَ أسباب تأخُّر العرب واقتراح الحلول من أجل مستقبلٍ أفضل، من خلال بحثِ دور الثّقافة في كلّ ذلك، قدَّم المقارنُ المغربي "سعيد علّوش" قراءةً فاحصة لما كتبه "غلّوم"، ولا يخلو رأيُه من إعجابٍ وتقدير، لما يكتبه هذا النَّاقد البحريني، لأنَّه كشف مواطنَ الضَّعف وأسبابَ التَّخلُّف في البلاد العربية، ومسؤولية أقطاب المشاريع الفكرية التَّحديثية، التي اقترحها مجموعةٌ من المفكّرين العرب، خلال القرن التّاسع عشر والقرن العشرين، وبقيت دون إنجاز في الواقع، لأسبابٍ ترجع أكثر لعدم أهلية المجتمعات العربية لقبول قوى التّغيير، نظرا لكون الثّقافة العربية وأنظمتها النّمطية، متجذّرة في ذهنية الأفراد وفي واقعنا الاجتماعي والفكريّ، وعبّرت عنها تلك القناعات المتعلّقة بالأفكار والآراء في مختلف القضايا المهمّة، زادت من الارتباط بالتّراث، بكلّ ما يحمله، والمرتبط بسياقاته التّاريخية، كموجّه لحياتنا المعاصرة، بدل اتّباع سنن التّحوّل والتّطوّر، والأخذ بالأسباب، بناء على الظروف الجديدة، وحول هذا المعنى يذهب"علّوش" أيضا إلى أنّ "غلّوم" «**يكشف...عن ظواهر نَسقية كثيرة في الثَّقافة العربية من خلال ملاحظة انتكاس مشاريع (الوحدة/الثّقافة/الاقتصاد) والتَّقوقُع حول إقليمية مشروطة بمظلّات القوى الكبرى قابعة بخصوصيّات (الأمكنة/الأزمنة/القبلية) الموصولة بنسقيّة الاستبداد وبالرَّمز الجبروتي الخاصّ بالسّيادة الدّولية**»[11]. فهو يتّفق معه في أنّ الثَّقافة العربية، ويقصد بها تلك البنى الفكرية المهيمنة الغالبة اليوم، لها الحظوة والانتشار والتّأثير الحاسم دون غيرها، هي تلك المُشبَعة بقيم التّسلّط لا الحرية، والمرتبطة بمؤسّسات ترعاها وتتحكّم في شروطها، ولم تستطع فرض نموذج، كفيلٍ بتطويرَ مناحي الحياة المختلفة، لذلك فشلت كلُّ المشاريع العربية؛ الوحدوية والثَّقافية والاقتصادية منذ النّهضة العربية، ويبقى سببُها المباشر كامنا في الثّقافة بشكلٍ أساسيّ، و"غلّوم" يربط ذلك بطغيان "نسق الاستبداد" المُحدّد للشَّخصيّة العربية، وللممارسات الاجتماعية، ولا ينفي "علّوش" في الوقت نفسه التّدخّلات الأجنبيّة والاتّفاقات المختلفة، ودورها الهامّ في إعاقة تلك المشاريع وكبح سيرورة تقدّمها، وهي مسألة هامّة، لا بدّ من أخذها بعين الاعتبار، لأنّ الغرب، ومن خلال العلاقات والاتّفاقات المختلفة والمتعدّدة التي تربطه بالعالم العربي، يبقى هدفُه الأساس هو توسيع النّموذج الحضاري الغربي في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثّقافة والمال أيضا، في سبيل الهيمنة، باعتبارها قوّة اندفاع وطبيعة ثابتة فيه.

إنّ "غلّوم" يبني مشروعَه النّقدي على تحويل وظيفة الثَّقافة من تبطّن نسقية خبيثة إلى إنتاج نسقية "حميدة**"، بحسب تعبير أحد أهمّ المختصّين في الدّراسات الثّقافية، وهو النّاقد الإنغليزي" أنتوني إيستهوب"(Antoni East Hope (1939-1999،

الذي لخّص مجمل ذلك في كتابه"الأدبي في الدّراسات الثّقافية"Literary into cultural studies ، وإذا شئنا نقل هذا التّصوّر فإنّ الأمر متعلّق، بحسب ما يذهب إليه "غلّوم"، بتلك النّسقية، التي تعمل على تفعيل مكامن المجتمعات، لتكون عاملا من عوامل التّطوّر والتّحوّل، في مقابل قوى هيمنية خفيّة، وهذا يُعدُّ اعترافا من قبل النّاقد البحريني بأنَّ للثَّقافة أدواراً إيجابية وجوانب لم يكن لها حضورٌ قويّ في المجتمعات العربية؛ جانبٌ مقموعٌ ومُقْصَى، يُمكن أن يكون العاملَ الأهمّ لإبراز العبقرية العربية، وهو ما يعني، بالنّسبة لـ"فلّوم"، أنّه يُمكن للثّقافة العربية صياغة القوى المساعدة في تشكّل عوامل الحضارة، من قلب الثَّقافة نفسها، عن طريق تفعيل تلك الأنساق الإيجابية، التي يُمكن لحضورها الفعليّ في الفرد وفي المجتمعات العربية، أن يُعدّ الدَّافعَ لإحداث النَّهضة الحقيقيّة والتَّطوُّر الحضاري، وتبقى مهمّة ذلك منوطة بجهودِ أقطاب الثّقافة والفكر والسياسة في العالم العربي .

ثالثا: مؤامرات القوى الكبرى ونكسة مشاريع النّهضة العربية

على الرّغم من حضور الهيمنة الغربية على مجمل الحياة العربية، من خلال فرض النّموذج الغربي؛ إعلاميا وسياسيا وثقافيا واقتصاديا وكذلك اجتماعيا، المرتبطة بمصالح الدّول الكبرى، إلّا أنّ"غلّوم" لا يرى أنّ للمؤامرات الخارجية دخلا في الواقع العربي، ولا يعتقد أنَّ الغربَ يُحيك لنا المؤامرات، على الرّغم من أنّ الغرب، منذ ما يزيد على الألف سنة يُواصل تدخّله في البلاد العربية، ابتداء من الحروب الصليبية، وانتهاءً بحملات الاستعمار، وتقسيم البلدان العربية، لكنّ"غلّوم" يرى أنّ سبب التَّخلُّف كامنٌ في الذَّات العربية، المتشبّعة بنسقية "خبيثة"، أشاعتها قوى خفيّة، كامنة في الثّقافة العربية ذاتها، وهي مُحدّدة ومُشاعة من قبل السُّلطة المؤسَّساتية في البلاد العربية، تستند إلى شرعية تاريخية أو دينية، تُقوّي خطابَها وتمنحه مشروعية الحضور دون غيره من الخطابات، وأُريد لها أن تكون الغالبة في مقابل خطاب نهضويّ مقموع ومُستضعَف، فالثّقافةُ العربية أريد لها أن تكون كذلك لخدمة مرتكزات ذلك الخطاب المؤسّساتي المُشرعِن لقيم خاصَّة، في المجال الاجتماعي والثَّقافي وكذلك السّياسي والاقتصادي، لأنّ تلك القوى المؤسَساتية وجدت في التّراث نفسه، ما يكفل بقاءها تحت غطاء شرعية تاريخية.

وتبقى مسألة تدخّل الغرب بقواه المؤسّساتية وإعاقته لمسيرة التّقدّم للشعوب العربية وغيرها، من الحقائق التي لا مراء فيها، وليست ضربا من العصاب، الذي يُوهمنا بوجود مؤامرات، وحتّى وإن تعلّق الأمر بمعيقات داخلية نسقية مرتبطة بالثّقافة العربية، فإنّه ودون شكّ، فإنّ للغرب دورا كبيرا في إثبات هذا الواقع العربي المتهالك، بفضل عمل المؤسّسات الغربية المختلفة بتواطؤ من الصهيونية، المتحالفة مع المؤسّسات المالية العالمية، كالبنك الدّولي وكذلك مع وسائل الإعلام الكبرى، الذي تُؤثّر في الرأي العام العالمي، وتُساعد، في دوائر مغلقة، على تثبيت الأنظمة المستبدّة بطريقة خفيّة، وتعمل على تأجيج الصراعات بين المذاهب والقوميات، واستغلال الفرص من أجل تنصيب الطغاة، الذين يحكمون الشعوب عن طريق إملاءات المؤسّسات الغربية، وبتواطؤ منهم، وتُخفي وراءها سياسة الدّول الكبرى، وقد ورد هذا عند عدد من أهمّ المفكّرين المعاصرين، ليس العرب فحسب، بل عند الغربيّين أيضا، إذ يرى النّاقد العراقي "مُحسن جاسم الموسوي" أنَّ «**الاستعمار يُحارب ظهورَ نظرية معرفية يجرى الاستنادُ إليها في تحضير المجتمعات المستعمَرة سابقا**»[12]. فالاستعمار الذي يعدّ إحدى المظاهر الأكثر تعبيرا عن الغرب وعن القيم الغربية، لم يرض بتطوّر المستعمَرين، ويُحارب كلَّ من يدعو إلى الحريّة والتّقدّم، أو يحمل مشروعا نهضويا وحضاريا، واضطرّ الاستعمار الجديد والإمبريالية مرات عدّة لإزاحة الشخصيّات الفاعلة، حين يُعتقد أنّهم سيكونون فعلا رجال الأمّة وأبناءها المخلصين، والتّاريخُ شاهد على العديد من هذه الأمور، وفي هذا المعنى تدور الأفكار التي

قدّمها جيلٌ من نقّاد ما بعد الكولونيالية، من أمثال المقارن والمفكّر الفلسطينو-أمريكي"إدوارد سعيد"، خصوصا في كتابيه"الاستشراق"1978و"الثّقافة والإمبريالية 1993، والمفكّر المصري -الفرنسي"سمير أمين" في مجمل كتاباته حول المركزية الغربية في الاقتصاد والفكر والثّقافة، لعلّ أهمّها" المركزية الأروبية، نقد الإيديولوجيا" 1988، و"نحو نظرية للثّقافة، نقد التّمركز الأوروبي والتّمركز الأوروبي المعكوس"، فضلا عن جماعة المفكّرين الأستراليّين" بيل أشكروفت وجاريث جريفيث وهيلين تيفين، في مؤلّفهم المشترك الموسوم بـ"دراسات مابعد الكولونيالية؛ المفاهيم الرئيسية"، فضلا عن أعمال المفكّرَين الهنديّين"إعجاز أحمد" في كتابه" في النّظرية؛ طبقات، أمم، آداب" و"ليلا غاندي" في مؤلّفها الهامّ "نظرية ما بعد الكولونيالية؛ مدخلٌ نقدي"، بالإضافة إلى المقارن الأدبي وعالم اجتماع المعرفة الأمريكو-إيراني" حميد دباشي" في مؤلّفيه؛"ما بعد الاستشراق"و"هل يستطيع غير الأروبي التّفكير؟" وكذلك النّاقد الأرجنتينو-أمركي"والتر ميغنولو" في مقالته المشهور" العصيان الإبستيمولوجي" وغيرهم، ممّن أوضحوا طغيان المركزية الغربية ومحاولات الهيمنة على باقي العالم، من خلال نقل النّموذج الحضاري الغربي وغرسه في البلدان غير الغربية، وهو ما يُؤكّد أنّ الإمبريالية والاستعمار الجديد خلفا الاستعمارَ القديم، بالتّواطؤ مع المؤسّسات الغربية؛ المالية والسياسية والإعلامية، من أجل إبقاء البلدان المستقلّة تحت هيمنة الغرب، من خلال ربطها بشبكة عالمية من القيم الغربية، التي تدّعي إنسانيّتها، لكنّها في حقيقتها استعمار جديد وإمبريالية مهيمنة، وإنّ مجرّد شعور الغرب بتفوّقه وإبراز ذلك في منظومات فكرية لدليل على هيمنته، وقد أكّدت مسيرة التّوسّع الاستعماري والرأسمالي على كلّ ما نذهب إليه، وعبّر المفكّر الألماني"ماكس فيبر" عن هذا، بما لا يدع مجالا للشكّ في تسلّط الغرب ومؤسّساته الهيمنية، في كتابه المشهور"الأخلاقُ البروتستانتية وروحُ الرأسمالية"، ويُؤكّد" المسيري" ما نذهب إليه بقوله «**تعاون هذا الاستعمار مع القوى التّقليدية والرجعية في المجتمع، وحاول إعاقة تحديث عالمنا العربي فقام بتحطيم تجربة محمّد علي، ثمّ قاموا بقمع ثورة عر ابي الشعبية، وساندت الجيوشُ الغربية الحديثة الخديوي ودعّمته وساندته. ثمّ انتهى بأن أقامت هذه الجيوش الدّولَ الحديثة في بلادنا التي لا تعرف من الحداثة سوى الأجهزة القمعية والأمنية**»[13].

فالمسألة كلّها متعلّقة بقوى داخلية، تستعين بالقوى الخارجية، لا تُريد لعالمنا العربي أن يتطوّر ويخرج من وضعياته الحضارية المأزومة، كما ولا بدّ أن نأخذ بعين الاعتبار مسائل أخرى حاسمة، تتعلّق بوجود عامل آخر، يُعدُّ أهمّ مسبّبات طغيان الغرب، وإفساده لكلّ وعي عربيّ، وهو وجود البترول والغاز في باطن معظم الدّول العربية، ما فرض "غرس" عشرات القواعد العسكرية الأمريكية في المنطقة، إن لم تكن أكثر، والقائمة بفرض نموذج حكمٍ ترضاه، ليس في ارتباطه بالأشخاص ونوعيّتهم، وإنّما بمن يقوم على حماية مصالح الولايات المتّحدة الأمريكية والغرب، لذلك فإنّ تناول مختلف جوانب المسألة، كما يطرحها"غلّوم"، يفرض علينا أن نأخذ بكلّ ما له دخلٌ في الواقع العربي المتردّي، لا الاقتصار على جزء منه فحسب، ولا أخال أنّ توحيد الشعوب والمجتمعات العربية، في ظلّ العلمانية، ليس سوى تماهٍ مع الغرب لتحقيق مصالحه والمحافظة عليها، وإنّ الحلّ، بالنّسبة إلينا، يكمن في تخليصنا من الهيمنة الغربية والأمريكية منها على الخصوص، ثمّ التّفكير في إرساء نظم سياسية، تميل نحو توحيد الشعوب العربية، ثمّ التّأسيس لمرحلة جديدة من اتّخاذ أسباب النّهضة، بعيدا عن المؤثّرات الغربية، مع إيماننا العميق، في الوقت نفسه، بضرورة تخليص الثّقافة العربيّة من نسقيّتها المتراكمة، ولتحقيق النّقلة لا بدّ من استحداث مرونة، تُمكّننا من تفعيل الجانب الإيجابي للثّقافة، وربطه بالواقع المعاصر للمجتمعات العربية، وهو ما نتّفق عليه مع ناقدنا البحريني، غير أنّ هذا الهدف المنشود تقف في وجهه معوّقات كثيرة، ولا يمكن تحقّقه في ظلّ أنظمة عربية حاكمة، لا ترى بديلا لها، وتبقى تغترف من التّراث النَّسقي، ولا تعي بوجود قوى تغيير مشروعة، ما زاد من تكريس تلك البنية

التّاريخية، التي تدّعي امتلاكَها الحقيقة، وتظلُّ تأسِر مستقبلَ الأمّة، وإنّ على المثقّف العربي اليوم، أنْ يمتلك حسًّا نقديا، يُمكّنه من فهم الواقع المعاصر بمختلف تجاذباته، وأنْ يُدرك تحوُّلات الفكر المعاصر والسياقات المرتبطة به، حتَّى يقترح الحلول للحدّ من سلطة البنى الثّقافية التّقليدية، ومن حضورها في وعي المثَقَّف العربي، بل وفي لاوعي أفراد المجتمعات العربية، لذلك، فلابدَّ من أنْ يُواكبَ هذه التَّحوّلات وعيٌ عربي بضرورة تحقيق حرية اجتماعية وأكاديمية وسياسية واقتصادية، بعيدا عن هيمنة النّسق الثّقافي وتجذّره في ممارساتنا اليومية.

على الرّغم من أنّ مسبّبات التّخلّف العربي كامنة في نسقية الثّقافة، التي خلقت نماذجها المستمدّة من شرعنة الطغيان والاستبداد، كما يُؤكّد"غلّوم"، إلّا انّ للمثقّف العربي كذلك دورٌ في إحلال هذا الواقع المرير، وحول هذا يذهب "غلّوم" إلى القول بـ «**إنَّ التَّصوُّرات والمفاهيم المتناقضة في الثَّقافة العربية هي تصوُّراتٌ ومفاهيم نسقية مرتبطة برمزها التُّراثي البعيد (الاستبداد/ الملك)...وهل يُمكن أن نفهم تنكُّر المثقَّفين ونُفسّر خياناتهم وتنازلاتهم إلّا عبر النَّسق الاستبدادي المُتساكِن مع أوهام الفجوة المضلّلة مع السّلطة التي اتّخذوها**..»[14]. فنسقية الثّقافة العربية المشرعنة للاستبداد، كجوهر حكمٍ، مع سكوت بعض المثقّفين وخضوعهم المتواصل لخطابه، وعملهم على تجسيده في أعمالهم وكتاباتهم المختلفة؛ السّياسية والأدبية والفكرية، هو ما أحدث تماهيا مع خطاب المؤسَّسة، ومنع ظهور خطاب آخر، بل أصبح هؤلاء المثقّفون يُشكّلون سلطة، أصبحت راعيَ النّسقية وحاميها، وظلّ الواقع المعاصر بعيدا عن التَّعبير عن مطالب المجتمعات العربية وآمالها في تحقيق غدٍ أفضل .

خاتمة

إنّ الثَقافة العربية ثقافةٌ نسقيّة، تبرز نسقيّتها في اعتبار القيم المُستخلَصة من التّراث مصدرَ حاضرها ومنبع تطوُّرها، بينما هي السَّبب الأوّل لتخلُّفها وتأخُّرها، وفي هذا يكمن فشل مشاريع النَّهضة والتَّحديث العربية، على الرّغم من اتّخاذها الفكرَ الغربي مرجعا في قراءاتها للتُّراث، كما أنّ للغرب دور في إفشال كلّ مشاريع النّهضة، فضلا عن أنّ الأنظمة السّياسية المتعاقبة في العالم العربي فشلت في تحقيق التّماهي مع شعوبها، ولم تنجح في وضع استراتيجية نهضوية حقيقة، انطلاقا من مشاريع أعلام النّهضة، ما أدّى لواقع عربيّ مرير؛ سياسيا واجتماعيّا واقتصاديا، وبقيت المجتمعات العربية نتيجة ذلك، رهينة قيمٍ تراثية نسقيّة، لم يتوسّع أفقها الحضاري ولم تأخذ السياقات المعاصرة بعين الاعتبار في تحقيق واقعٍ جديد، وأعادت صياغة محتويات التُّراث بطريقة انتقائية، مشوبة بنزعات إيديولوجيّة، ومُحدَّدة بنظام فكريّ تسلُّطيّ، كرّس تلك الانتقائية مرجعيةً وحيدة، وتحتلّ العلاقةُ بين الحاكم والمحكوم منذ الأزل في هذا الإطار محورَ التّجاذبات الاجتماعية والثَّقافية، باعتبارها عاملا آخر من عوامل طغيان النَّسقية، غير أنّ الواقع الفعلي للبلدان العربية لا يبدو أنّه سيرى تحقّقَ كلّ هذا المأمول قريبا، وذلك لأسباب عديدة على رأسها تزايد الاستبداد والطغيان في الأنظمة السّياسية نفسها، وبالنَّسبة لـ"غلّوم" يبقى المجال مفتوحا لحصول التّغيير، حيث يرى أنّ «**تفكيك المفهوم النَّسقي للثّقافة العربية المتحكّم في السّياسة والاقتصاد والمجتمع والتَّربية والأخلاق لا يتمّ إلّا بتطوير الأنظمة السّياسية وتنميتها في اتّجاه العقلانية والدّيمقراطيّة والفصل بين الدّين (منبع النَّسقيّة) والدّولة (منبع جميع السُّلطات) وذلك بهدف تنظيم حياة مو اتية لإنتاج ثقافة مدنية تشترك فيها الدّولةُ والأفراد والجماعات والمؤسَّسات وفق قو انين طبيعيّة مُستمدّة من الو اقع والحياة وليس من الدّين أو الميثولوجيا أو سجالات التّأويل في التّراث الثّقافي العربي**»[15]. وأمام هذا الواقع الفكريّ يُقدّم "غلّوم" حلولا، يراها مناسبة، وعلى رأسها العودة إلى العقلانية وتطوير الأنظمة السياسية، نحو تبنّي الدّيمقراطية لتحقيق العدالة الاجتماعية، حيث إنّ

تطوير النّظام السياسي يُعدّ بالنّسبة له أهمَّ إنجاز يجب فعله، حتّى تتحقّق مشاريعُنا التّنويرية والتّحديثية، ويُمكننا بناء على ما يذهب إليه"غلّوم" في هذه الفقرة، أن نكتشف أنّ الرجل يصل في بعض الأحيان إلى مناقضة نفسه، فهو لا يرى أنّ للغرب دورا في تخلّفنا، ويدعو لجعل الثّقافة العربيّة ثقافة فاعلة، من خلال تقليص تدخّل النّسقية المعيقة، المتمثّلة، حسبه، في الدّين والميثولوجيا وتكريس الانتقائية فيما يتعلّق بالتّراث الثّقافي العربي، وتأسيس حاضر جديد، لكنّ هذا الحاضر، في رأيه، يجب أن يقوم على العقلانية وعلى الدّيمقراطية، وكذلك على الفصل بين الدّين والدّولة، ويرى أنّ الدّين هو منبع النّسقية، التي لا ينى ينتقدها في كتابه، وهذا يعني تأسيس نظام علمانيّ يُسمّيه بالمدني، تقوم فيه الدّولة والأفراد والمؤسّسات بتنظيم حياتها، وفق قوانين طبيعية مستمدّة من الواقع لا غير، وبهذا فهو ينخرط في الاتّجاه التّغريبي، الذي يُريد سلخ الأمّة عن قيمها وموروثاتها بإدخال النّموذج الغربي في السياسة والاقتصاد والثّقافة، الذي ثبت فشله، حتى في الغرب نفسه، وإنّ مدار الأمر، في اعتقادنا، لا يتمثّل في تلك تطبيق المفاهيم الغربية، والسير على دعوة الغرب إلى الفكر الإنساني، المحدود بإطاره الجغرافي الأروبي والغربي، بل في "البيعة" و"الشورى"، لأنّه النّظام الموافق لخصوصيّات المجتمعات العربية-الإسلامية، لأنّ ما يصلح للأمّة، لا بدّ وأن يكون مصاغا من خصوصيّاتها الدّينية والثّقافية، ومن طبيعتها الاجتماعية الواقعية، وذلك باستبعاد كلّ ما يُحيل إلى النّسقية، البعيدة عن فطرة الإنسان، التي أودعها الله إيّاه، على اعتبار أنّ الدّيمقراطية، ليست سوى إحدى مظاهر الحضارة الغربية، المأزومة أصلا، والمرتبطة كذلك بسياقات وظروف، تخصّ تطوّر مجتمعاتها.

الهوامش:

---

[2] - ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون، علمُ الاجتماع، ترجمة حمدي الجابري، المشروع القومي للتّرجمة والمجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005، ص98

[3]- إبراهيم عبد الله غلّوم، الثّقافةُ وإنتاج الدّيمقراطية، المؤسّسة العربية للدّراسات والنّشر. بيروت. الأردن، الطبعة الأولى. 2002، المقدّمة، ص 8

[4] - عبد الوهاب المسيري، دراساتٌ معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدّولية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006، ص33

[5]- إبراهيم عبد الله غلّوم، الثّقافةُ وإنتاج الدّيمقراطية، المقدّمة، ص 11

[6] - عبد الوهاب المسيري، دراساتٌ معرفية في الحداثة الغربية، ص50

[*]- تناول "كارل ماركس" في سياق نقده للرّأسمالية الأروبية مسألة "التّشيّؤ"، ورأى أنّ الإنسان المعاصر في عصر "مجتمع الاستهلاك" أصبح "شيئا"، يُفعل به ما يُفعل بالأشياء، وقد واصل فلاسفةُ مدرسة فرانكفورت ضمن "النّظرية النّقدية" نقدَ الرأسمالية، ورأوا أنّ الإنسان المعاصر أصبح مُهيمَنا عليه بقوى عديدة، ولم يعد يملك القدرةَ له على التّحرّر، ممّا تفرضه عليه المؤسّساتُ الرأسمالية، والواقع العالمي الجديد، ويرى "توم بوتومور" أنّ «**التّشيّؤReification مصطلح صاغه جورج لوكاتش ليصف ما سمّاه ماركس (التّشيؤ السّلمي)، الذي يذهب إلى أنّ الإنتاج في النّظام الرأسمالي يُركّز اهتمامَه على السلعة المنتَجة، من حيث إنّها حصيلة عمل مبذول وأدوات إنتاجية، وبالتّالي تُصبح قيمتها كامنة في سعرها، أو ما يُسمّى بالقيمة التّبادلية وليس في قيمتها الاستخدامية**» يُنظر؛ توم بوتومور، مدرسةُ فرانكفورت، ترجمة سعد هجرس، دار أويا للطباعة والنّشر، ليبيا، الطبعة الثانية، 2004، ص 177. وقد انعكس هذا على الإنسان، ومعنى هذا أنّ السلعة أصبحت أهمّ من الإنسان، ولا يُنظر له إلّا باعتباره سلعة، ويحدُّ الواقع الرأسمالي المعاصر من بشرية الإنسان، في عالم قائم على الإنتاج والاستهلاك .

[7] - سعيد علّوش، نقدٌ ثقافيٌّ أم حداثة سلفيّة؟ دار أبي رقراق، الرباط . المغرب، الطبعة الأولى، 2007، ص 153

[8]- إبراهيم عبد الله غلّوم، الثّقافةُ العربيّة؛ هيمنةُ نسق الاستبداد، مجلّة ثقافات، كلّية الآداب. جامعة البحرين، العدد الأوّل، 2002، ص 9

[9]- إبراهيم عبد الله غلّوم، الثّقافةُ وإنتاجُ الدّيمقراطية، ص17- 18

[10]- المصدر نفسُه، ص 25/24

[11]- سعيد علوش، نقدٌ ثقافي أم حداثة سلفية؟ ص 155- 156

[**]- حول الأنساق الحميدة والأنساق الخبيثة، يُنظر؛ عبد القادر الرّباعي، تحوّلاتُ النّقد الثّقافي، دار جرير، عمان، الطبعة الأولى، 2007، ص 46، في قراءته لمضمون كتاب" أنتوني إيستهوب، الأدبي في الدّراسات الثّقافية، ويُنظر كذلك؛ Antony Easthope,Literary into cultural studies, Routlege, London, First Published, 1991

[12] - محسن جاسم الموسوي، النّخبةُ الفكرية والانشقاق؛ تحوّلاتُ الصفوة العارفة في المجتمع العربي الحديث، دارُ الآداب. بيروت، الطبعة الأولى. 2001، ص 26

[13] - عبد الوهاب المسيري، دراساتٌ معرفية في الحداثة الغربية، ص 36

[14]- إبراهيم عبد الله غلّوم، الثّقافةُ وإنتاجُ الدّيمقراطية، ص 33

[15]- إبراهيم عبد الله غلّوم، الثَّقافة العربيّة؛ هيمنةُ نسق الاستبداد، ص24